الحلقة الخامسة

عزيز ضياء

إذا كان القرن الماضي بويلات حربيه العالميتين: الأولى والثانية.. قد أخرج عشرات الكتاب والأدباء والفلاسفة والفنانين من أوروبا الغربية والأمريكتين.. فإن الجزيرة العربية التي شاركت مشاركة فعالة في «الحرب الأولى»، وحايدت في «الحرب الثانية» إلا من مساعدات فرضها عليها: النفط والخوف من بطش الأقوياء.. كان لها نصيب من ذلك.. وإن بدا غير محسوس أو غير معترف به من السبَّاقين من أدباء وشعراء مصر، والشام، والعراق، بسبق دولهم إلى المدنية والتقدم والرقي.. عندما كانت الجزيرة العربية إجمالاً تتعثر في فقرها وقلتها في كل شيء.

إن أول هؤلاء الذين يشرُقُ بهم تاريخهم وتسطع بهم ذاكرتي.. هو هرم الأدباء والكتاب والمترجمين والنقاد والمحللين السياسيين: الأستاذ عزيز ضياء، فقد ولد في مطلع العام الذي شهدت نهايته بدايات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م)، ليعيش تلك الحرب وهو لا يدري منها شيئاً.. في رضاعه وفطامه، ثم ليفيق وهو ابن الخامسة.. ليجد نفسه طفلاً خائفاً زائغ البصر والنفس فوق وبين أكوام من الأمتعة، وحوله أمه وخالته و«دادته» وجده ودموعه وهي

تسيل على لحيته البيضاء، وشفتاه لا تكفان عن الصلاة على النبي وترديد الآية الكريمة «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد»، ليعلم أن الشيء الذي كان يهتز به.. هو: «سفر برلك».. أو آخر عربة قطار تغادر المدينة المنور إلى دمشق، وهي تحمل رعايا الدولة العثمانية إلى بقايا أراضيها في الشام بعد أن أصدر «فخري باشا» والي المدينة المنورة العثماني أوامره بالرحيل عنها.. بعد أن استولى «الشريف الحسين» على مكة وجدة والطائف وينبع، وسقطت القدس وفلسطين في يد البريطانيين.. وبيروت ولبنان في يد الفرنسيين، ليرى هناك بعد حين في دمشق وحلب وحماة.. بقايا الجنود العثمانيين و«الألمان» وخوزاتهم وسياراتهم و«جبخانات» أسلحتهم، ولتروعه من قبل مشاهد الموت.. جوعاً ومرضاً على أرصفة الشوارع والميادين وفي المساجد والطرقات، ثم ليعود بعد ذلك من القنطرة إلى اللاذقية ثم عبر البحر إلى «ينبع».. ثم فوق الجمال إلى «المدينة» ثانية وقد فقدت العائلة جده الشيخ، وخالته الحسناء، و«الدادة» التي قتلتها مشاهد الحزن والأسى على الأسرة وما آل إليه مصيرها من تشرد وفقر ومرض وضياع.. فلم يبق معه إلا والدته الصابرة المكافحة التي استوقفت «الجمَّال» بعد أن بلغوا محطة «الاستسيون» في المدينة المنورة.. لتتوضأ وتصلي صلاة الشكر لله لعودتها إلى «المدينة المنورة» وهي تلعق ترابها مرة.. وأخرى.. وثالثة ودموعها تسبق ركوعها وسجودها.

* * *

لقد كان مشهد الافتتاح في طفولته.. مروعاً ومرعباً. دامعاً ودامياً.. ولكنه كان معلماً وملهماً له، فقد ملأه عزيمة وطموحاً، وملأه يقيناً مبكراً بأن الحياة والحزن: توأمان!! وإذا كان من سوء حظه أنه تيتم وهو في شهره التاسع بسفر والده الطويل الذي لم يعد منه.. حتى مات، فقد كان من حسن طالعه أن تقترن والدته بصيدلي أرستقراطي مثقف (زاهد ضياء)، يعرف «الكتاب» و«الأسطوانة» ويستخدم أرقى أدوات العصر حياة.. مما لا يعرفه الكثيرون من أبناء المدينة وأهلها آنذاك، وقد كرهه بداية.. لانتزاعه أمه منه، ثم أحبه في النهاية.. إلى الحد الذي جعله يأخذ من اسمه: لقباً له.. ومن طرائق وأسلوب حياته مرجعية له، هي تلك التي عاش بها.. ورأيته عليها طوال العشرين سنة الأخيرة من حياته.. حتى أسميته بـ «اللورد عزيز» خلافاً لما أجمع عليه محبوه عندما كانوا يسمونه بـ «الأب عزيز» لتميزه، وتميز كتاباته، وللغته الإنجليزية التي صقلها بجهوده بين الندرة ممن كانوا يتحدثون بها أو يكتبونها، ولتفرده باستخدام الآلة الكاتبة بين كل من سبقه ولحقه من زملائه في كتابة مقالاته وقصصه.. ككبار المراسلين الصحفيين.. وككبار الكُتَّاب في الغرب.

* * *

فبعد أن أنهى دراسته في «المدرسة الراقية» بالمدينة.. غادرها إلى «مدرسة الصحة» التي تم افتتاحها آنذاك في مكة ظناً منه أنها مدرسة لتخريج «الأطباء»، وعندما اكتشف أنها «مدرسة

للتمريض».. غادرها ليعمل موظفاً بإدارة الصحة نفسها، لكن طموحه الدراسي لم يجعله يستسلم لخدر الوظيفة، فاستقال منها ليحقق حلمه - وقد ضاع منه لبعض الوقت - في الحصول على «الثانوية العامة» في سنة واحدة حتى يتمكن من دخول الجامعة.. فسافر إلى القاهرة والتحق بـ«مدرسة الخديوي إسماعيل» الثانوية، ولكن حلمه لم يتحقق في الحصول على الثانوية في سنة واحدة بعد أن رسب في مادتين.. وعندما دخل امتحان الدور الثاني رسب أيضاً في مادة الفيزياء، ولكن تلك النتيجة المخيبة لآماله.. لم تجعله يلغي حلمه في الالتحاق بالجامعة، فسافر إلى بيروت للالتحاق.. بالقسم الحر في «الجامعة الأمريكية»، وفي عامه الثاني بدأت طلائع الحرب العالمية الثانية.. وقد كانت حرباً ضروساً تتواضع أمامها الحرب العالمية الأولى.. فعاد إلى الوطن، وإلى الوظيفة ثانية.. ليتحقق له جانباً من حلمه الجامعي بعد ذلك عندما التحق بمعهد التحقيق الجنائي في «كلية الحقوق» بالجامعة المصرية.. وتخرج منه بتفوق مكنه من اعتلاء عدد من المناصب، لكن المثقف فيه كان قد نما وكبر.. ولم يعد يحتمل الصمت.. فَفُصل من «الوظيفة»، ليذهب إلى القاهرة ثانية.. ومنها إلى الهند مذيعاً ومترجماً في القسم العربي بإذاعة «دلهي»، ولكنه استدعي من هناك.. ليتسلم واحدة من أكبر الوظائف (آنذاك): مديراً لمكتب مراقبة الأجانب.. فوكيلاً للأمن العام لشؤون الجوازات والجنسية.

* * *

إن الكاتب والفنان المبدع.. في عزيز ضياء لم يكن لينتظر كل هذه السنين التي اختصرت بعضاً منها في السطور السابقة ليعلن عن نفسه ووجوده، فقد بعث بأول مقال له لصحيفة «صوت الحجاز» عند ظهورها (١٣٥٠هـ).. عندما كان في السابعة أو الثامنة عشرة من عمره موظفاً بمديرية الصحة، فكان احتفاؤها بنشر مقاله الأول.. داعياً له أن يصحب مقاله الثاني في أول زيارة يقوم بها لمكتب الصحيفة في مكة، وقد خيلت له قراءاته.. أنه سيجد في صالونها: جوته.. آخر، وفولتير.. آخر، وبلزاك آخر، ولكنه فوجئ بغير ذلك.. كما فوجئ رئيس تحريرها بأن صاحب المقال الذي احتفت به صحيفته.. هو هذا الشاب الصغير النحيل الذي يقف أمامه..!!

ولعل أسباب المفاجأة عند الطرفين.. تكمن في ذلك الاختلاف بينه وبين الآخرين والذي كانت تقوم عليه مفردات حياة الأستاذ عزيز: فهو مختلف في قراءاته عن سابقيه ومجايليه.. وهو مختلف عنهم في أدائه بين الإبداع والترجمة.. وهو مختلف عنهم في تنوع إنتاجه بين المقالة والقصة والتمثيلية والتعليق، وهو مختلف عنهم في أسلوبه الذي جمع بين جزالة الماضي وعصرية الحاضر وإشراقات الآتي.. ولذلك لم يكن غريباً أن يحتل موقعه .. إلى جانب الأساطين ممن سبقوه من أمثال الغزاوي والصبان والآشي والعامودي في ثالث كتب النهضة الأدبية في بلادنا وأعني به كتاب «وحي الصحراء».. وهو في الثالثة والعشرين من عمره.. حيث

يقول في واحدة من مقالاته ومقطوعاته السبع التي نُشرت له فيه بعنوان «أمتي»:

«كنت يا أمتي فجراً فضياً في ظلمات الماضي السحيق.. وأصبحت بصيصاً خابياً في نور الحضارة الجديد.

كنت يا أمتي شمساً يستضيء بها الضالون وأصبحت ظلاماً يضلُ فيه المهتدون.

كنت يا أمتي قوة يخافها الأقوياء.. وأصبحت ضعفاً يعبث به الضعفاء.

وفي أخرى عن «العيد» وقد تذكر خالته الشابة الحسناء التي ماتت وهي في ميعة صباها أثناء الحرب الأولى.. فتمثلها في الشمس وهي تغيب.. وإلى الحد الذي يختلط على قارئه إن كان يتحدث عن الشمس أو عن خالته الشابة:

«كانت تحب الحياة وتبغي البقاء
فكان احتضارها أملاً وهوى
ولكن الأجل قد جاء والوقت قد حان
فتخاذلت، وهناك وراء الجبال لاقت الردى
فحملها الأفق إلى مثواها في أعماق الدهور
وكلل الشفق نعشها بالزهور
وبكاها فأراق على الأفق الدماء
ثم لما ابتلعها لحدها وغيبها دهرها

صاح في الروض طير
لقد ماتت ذكاء
فكان يوم قديم قد مر، وكان شهر قديم قد انقضى
وجُن جنون السحاب الحزين
فناح نواحاً.. يثير الحنين»!!

وفي ثالثة بعنوان «وطني».. يقول فيها:

«من حرارة شمسك استمددت حرارة إخلاصي
من صفاء جوك اكتسب الصفاء ضميري
وسأظل يا وطني
سأظل وفياً لك مادامت لبان أمي تجري في دمائي
وستظل حرارة إخلاصي مادامت حرارة شمسك
وسيدوم صفاء ضميري مادام صفاء جوك
وسأبقى صريحاً قوياً ما بقيت سهولك وجبالك»

.. بهذه الأنفاس المختلفة، وبهذه الحرارة المبكرة تدفق عطاء الأستاذ عزيز.. في مئات المقالات التي جاءت فيما بعد، والتي تم تبويبها وحصرها عند إعداد أعماله الكاملة في أربعة مجلدات هي: «مع الفكر والمجتمع» و«حصاد الأيام» و«آراء في الحب والفن والجمال» و«كان القلب يقول».. إلى جانب مجموعته القصصية «ماما زبيدة وقصص أخرى»، وروايته التي لم تكتمل «عناقيد الحقد»، وكتابه الشهير عن حمزة شحاتة «قمة عرفت

ولم تكتشف».. إلى جانب تمثيلياته التي كان من أجملها وأبرزها: «الحصاد» و«الأطلال» و«كانت أيام» و«هذا هو الحب».

* * *

كانت قراءات الأستاذ عزيز للإنجليزية.. سبباً لتعرفه على كثير من رموز الأدب والفكر والفن في العالم، والإعجاب بهم وبأعمالهم الأدبية والفكرية والمسرحية والموسيقية.. بل وأحسب أن تلك المعرفة وذلك الإعجاب كانا سبباً رئيسياً في كتابة كتابه الجميل: «جسور إلى القمة» الذي ترجم فيه لحياة سبعين من ألمع أدباء ومفكري وفناني العالم من العرب والمسلمين والغرب.. فكان من بينهم اثنان وثلاثون من أدباء ومفكري وفناني أوروبا كـ «روسو» و«ديكارت» و«موليير» و«شو» و«شوبان» و«دافينشي».. على سبيل المثال، بل وأحسب أن الإعجاب بهم.. كان أحد دوافعه الأساسية لترجمة الكثير من أعمالهم، وأعمال غيرهم التي بلغت ما يزيد عن ستة عشر عملاً.. كان في مقدمتها ترجماته لأعمال «سومرست موم» القصصية، ولأعمال «طاغور» ولبعض مسرحيات «أوسكار وايلد» و«الخادمتان» لجان جينيه، ومدرسة الزوجات لـ«تولستوي» إلى جانب ترجمته لرواية «عهد الصبا» في البادية التي كتبها مؤلفها «إسحاق الدقس» بالإنجليزية عن الحياة العربية في البادية.. إضافة إلى ترجمته الضخمة لرواية «العالم عام ١٩٨٤م» الشهيرة.. لمؤلفها جورج أرويل..

لقد استغرقته.. التراجم كثيراً وطويلاً إلى جانب مقالاته اليومية والأسبوعية في الصحافة، وتعليقاته في الإذاعة، ومحاضراته في الأندية والجمعيات، ولكنه التفت في اللحظة المناسبة لكتابة قصة حياته.. وكأنه قد أخذ بقول القائلين: إن أجمل قصة في حياة الكاتب.. هي قصة حياته!! ليكتب حياته مع «الجوع والحب والحرب».. في ثلاثة أجزاء لا أجمل ولا أمتع منها، وكان طبيعياً أن يهديها لـ «أمه».. وأن يقدمها لـ «ولده»، وكان رائعاً أن يصدرها بالمثل الفرنسي الذي يقول: «الحياة كالبصلة.. يقشرها المرء وهو يبكي»..!؟